تشرشل في ميزان التاريخ

بقلم الدكتور جورج حنا

اما وقد مر على وفاة ونستون تشرشل شهور خمسة، واصبح ملكا للتاريخ ، فالتاريخ وحده من يقول فيه كلمة الحق والانصاف ، بعيدا عن اي انطباعات عاطفية او مؤثرات وطنية آنية .

على انه اذا كان للتاريخ وحده ، ان يقول كلمة الحق والانصاف فيمن يدخله عظيما كما دخله تشرشل ، فليس استباقا لما سيقوله التاريخ ، اذا اعطي التاريخ « همزة الالف » ممن عرفوا العظيم في حياته .. فيأخذها التاريخ « طرف الشموط » ويمشي في الشريط من بدايته الى نهايته ، ويقيم عظمة العظيم ، بميزانه هو .

***

ان الشيء الذي لا يسع احدا نكرانه ، ان ونستون تشرشل عاش حياته عظيما .. قلائل هم من يساوونه عظمة . دخل الجندية ، وحارب ، واحسن الكز والفر فيها. وامسك بالقلم وكتب ، وابدع لغة وفكرة . وخاض معترك السياسة شابا ، عنده قوة الاقناع كاعرق البرلمانيين . واذ وصل الى قمة مجده ، واصبح الرجل الاول في امبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، عمل لدولته، ما قلما عمل من رجالها .

ويموت الرجل .. ويتسلمه التاريخ .. ويضعه في ميزانه ، فيسجله في السجل الذي لا تمحوه الايام ولا السنون ، في المحل الذي يستحقه ، لا اكثر ولا اقل .

وميزان التاريخ — مثل كل ميزان — ذو كفتين . في الكفة الاولى ، عيارات ، هي الاعمال التي اتاها العظيم في حياته .. وفي الكفة الثانية ، عيارات ، هي المنافع التي اتتها هذه الاعمال .. في الصعيد الانساني اولا، وفي الصعدان المحلية والقومية والوطنية ثانيا .

بهذا الميزان ذي الكفتين ، تقيم محكمة التاريخ عظمة كل عظيم ، اكان ونستون تشرشل ام سواه .

فاي من الكفتين ، ترجح على الثانية في عظمة تشرشل ؟

***

في كفة الاعمال .. كوم تشرشل اكواما من العيارات كل منها ، يزن مثاقيل . محارب شديد المراس في حملة الجيش البريطاني ضد الدراويش المهديين في السودان . ومحارب في البوير ، استبسل في الحرب ، واستبسل في الافلات من الاسر . وبريطاني كبير في برلمان كبير . ووزير في اشهر الوزارات البريطانية ، ادار دفتها بيد من حديد . وطباخ لا امهر في طبخ سياسة بريطانيا الاستعمارية في الشرق . واخيرا رئيس حكومة بريطانيا العظمى ، قاد الامبراطورية في احلك ايامها ، وانقذها من الغزو الهتلري ، وكان له فضل كبير في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الاخيرة .

اما وقد اصبح ونستون تشرشل في ميزان التاريخ .. فلا معدى من السؤال ، عن اي من كفتي الميزان، ترجح على الثانية، عندما يتحرك الميزان .. اهي كفة الاعمال ، ام كفة المنافع التي اتتها هذه الاعمال ، في الصعيد العالمي الانساني اولا ، وفي الصعيد الوطني ثانيا . انه لسؤال يسأل ، وليس فيه ما يغمط حق تشرشل في عظمة، يشهد له بها ، في الصعيد الوطني ، اكثر من الصعيد الانساني.

***

دخل تشرشل الحرب ، على رأس امبراطوريته ، رافعا لواءات لا اسمى .. الدفاع عن الحرية والديمقراطية .. القضاء على الفاشية عدوة الحرية والديمقراطية .. حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها ، ومساعدة المتخلفة منها لكي تستقل وتتقدم.. العمل من اجل سلم دائم لا تعكره حروب .. احترام حقوق الانسان كل انسان.

وانتصرت جبهة تشرشل . فهللت الشعوب وكبرت .. وغاب هتلر وميسوليني تحت الارض . وانشىء في مدينة نيويورك منظمة الامم المتحدة ، على مبادىء تشرشل وحلفائه ، وتفرع عنها لجنة اسمها لجنة حقوق الانسان .

فماذا كانت نتائج انتصار جبهة تشرشل وحلفائه ؟

***

كان اولها ، تكتل امبراطورية تشرشل وحلفائها الغربيين ، في عالم اسطوري ، اطلقوا عليه اسم « العالم الحر » .. تمييزا له عن « العالم العبد » اي عالم الاشتراكية ، الذي تزعمته اكبر حليفات تشرشل في الحرب ، واكثرها فضلا في الانتصار .. والتي عمدتها جبهة تشرشل وحلفائها الغربيين ، عدوة ، فور انتهاء المحنة .. وشاءت ان تزيحها من الميدان ، ليبقى الميدان مسرحا لها ، تصول وتجول فيه ، وتنصر حرية الملايين وديمقراطية اصحاب الملايين .. وتستبدل بالاستعمار

القديم ، استعمارا جديدا ، اكثر لؤما .

وغيب انتصار الحلفاء فاشية هتلر وميسوليني .. واحل محلها عالم تشرشل الحر ، فاشية من نوع جديد.. وانتقلت عنصرية هتلر من المانيا ، الى بلدان هي في قلب العالم الحر .. وجاءت العنصرية الجديدة ، تغتصب ارضا عربية ، بفرض من المنتصر تشرشل بالذات ، لتجعل منها خنجرا في قلب العرب ، ومرتكزا لاستعمار الغرب للعرب والشرق العربي كله . والشعوب المتخلفة ، التي دخل تشرشل الحرب على وعد بان يمسك بها ويرفعها ، اذا تجرأت وطالبت بتحقيق ما وعدت به ، تنكر لها انتصار تشرشل وحلفائه وعالمهم الحر ، وقاموا عليها قومة واحدة. واطلقت امبراطورية تشرشل يد الولايات المتحدة ـ زعيمة جبهة العالم الحر ـ في منظمة الامم المتحدة ، فانكرت وجود ربع سكان العالم يعيشون في الصين . والهبت شرارة حرب « تأديبية » في كوريا ، والفييتنام، والسويس، والجنوب العربي ، وفي كل بلاد ، يحتاج شعبها الى « تأديبها » .

وتوفي تشرشل ، مطمئنا ، بانه قام بدوره ، «باشاعة السلام على الارض ، وتحرير الشعوب من العبودية ، ومساعدة المتخلفة منها » .. تاركا لزعيمة جبهته ،ان تكمل ما بدأه هو .

وفي الصعيد الاضيق ـ الصعيد الوطني والقومي ماذا كانت نتيجة انتصار تشرشل في بريطانيا نفسها ؟

ان بريطانيا ، التي بكت رجلها الكبير ، كما لم تبك احدا من كبار موتاها .. واقامت له مأتما اين منه مآتم ملوكها .. وسيرت وراء نعشه كبارها وصغارها ، عدا الذين جاؤوا من بعيد .. بريطانيا التي انتصرت في الحرب بفضل بطولة تشرشل .. بريطانيا التي ما كانت تغيب الشمس عن ممتلكاتها .. بريطانيا هذه ، اما انتصرت في الحرب ، ثم خرجت منها تابعة للولايات المتحدة ؟ اما نزلت عن مكانتها العالمية ، واصبحت دولة ثانية بل ثالثة ؟ اني اذكر كلمة قالها تشرشل في احدى خطبه عن استقلال البلدان المستعمرة من بريطانيا « انا ما تيت الى الحكم لاصفي الامبراطورية البريطانية » .. افليس انتصاره بالحرب، هو الذي وضع مرسوم تصفية هذه الامبراطورية ؟

ولكن ما علينا من هذا .. فاذا بكى تشرشل وامبراطوريته تصفية الامبراطورية ، فليست الانسانية،هي التي تشاركهما البكاء .. ولسنا نحن في البلاد العربية ، نشاركهما البكاء .

***

ان يقول احد .. ان الرجل ، في بعد نظره ، ما كان يخفى عليه ، ما ستؤل اليه امبراطوريته بعد الحرب ، غير انه آثر انتصار الحرية والديمقراطية ، ولو كان في هذا تضحية من جانب بلاده ، فهذا القول ـ عدا عن انه يضحك الثكلى ـ فلا ينطبق على من عرف بانه « ابو الاستعمار وحموه وذو ماله » ، ومنه جاءته العظمة ، كقطب استعماري في اكبر دولة استعمارية . اما القول الاصح ، فهو ان تشرشل ، الواثق بنفسه ، وحنكته وعبقريته الى لا حد ، حسب انه متى انتصرت جبهة الحلفاء ، بمقدوره ان يطبق حليفته الولايات المتحدة ـ نسيبته من جهة امه ـ ويوفق بينها وبين امبراطوريته ، على ما هو يرغب ، فيدخلها شريكا في النفوذ الاستعماري ، بعد ان يكون قضى على الحليفة الثانية « المشاغبة » الاتحاد السوفياتي ، الشيء الذي كان تشرشل يعمل له من «تحت لتحت» اثناء الحرب بالذات ، ويعمل جهارا نهارا بعد النصر ، كما هو معروف وثابت . ولعلها المرة الاولى ، التي خانته عبقريته ، وجاء حساب البيدر على غير حساب الحقل .. اذ لا نسيبته من جهة امه ـ وقد ابطرها غنى الحرب ـ اكتفت بالمشاركة سواء بسواء ، وقبلت ان تكون اقل من سيدة على امبراطورية تشرشل .. ولا الاتحاد السوفياتي ، تمكن تشرشل من القضاء عليه ، او اخفات صوته بوجوب تحرير الشعوب المستعمرة من مستعمريها .

***

قد يقول قائل .. ان هذه التغيرات ، سواء في بريطانيا ، ام في النطاق العالمي الاوسع .. وثورات الشعوب ضد مستعمريها .. والانتفاضات التي هبت في مختلف اقطار العالم ، ثاني يوم النصر بالذات .. وموجة التحول نحو الاشتراكية .. قد يقول قائل ، انها نتيجة حتمية التاريخ . ان في هذا القول بعض المنطق لا كله . فحتمية التاريخ لا تأتي من ذات نفسها ، وبدون مساعدة من صانعي التاريخ . ان صانعي التاريخ ، هم من يستعجلونها او يؤخرونها . وما احسب ان تشرشل ـ كاحد صانعي التاريخ ـ كان يرغب في استعجالها على النحو الذي استعجلت .. لتستعجل هي بدورها ، ذهاب امبراطوريته العظمى .. وتذهب ايضا بعظمة تشرشل التاريخية .. وتحصرها ، في نطاق بطولات سياسية وحربية ، لا تتعداها الى نطاق انساني شامل .

***

قد يتهمنا احد ، اننا نقول ما نقوله في الرجل ، من حقدنا عليه ، بسبب سياسته الصهيونية ، وخلقه اسرائيل في قلب البلاد العربية ، لطعن العرب ، الذين عرف عن تشرشل بانه من الد اعدائهم، وبسبب سياسته الاستعمارية في كل البلاد العربية . على اننا نحن العرب ، نحاسب ولا نحقد . فتقديرنا عظمة تشرشل كرجل دولة ، خدم دولته المقيتة ، لا يقل عن تقدير قاديه . ولكن التاريخ ابعد نظرا منا نحن احياء . فالاحياء يقدرون العظيم لما يأتيه من بطولات في حياته . اما التاريخ فيبني تقديره على ما اتته هذه البطولات من منافع ، في الصعيد الانساني الشامل.. التاريخ لا يكتفي بما يراه في امة واحدة ، او مجموعة من الامم ، بل يتطلع الى الانسانية جملة .. ويضع من يدخله

اهل الكهف

بجناحي رخ
وصيحة رخ
الزمن يدق ويصرخ :
يا اهل الكهف
الساعة الف بعد الالف
الارض تعالت فوق مدار الشمس
صار الاوج حضيض الامس
البشر اذلوا قمم الافلاك العشرة
فدعوا الحفرة
القوا نظرة

...

لكن رنين الصوت الصارخ
حين يلامس برد الكهف
يتجمد في حبات ملساء
تنزلق الى اعماق الصمت
وتذوب هناك بغير صدى
فالصمت عميق
والصوت غريق
والكهف ظلام
والقوم نيام .

... ايقظهم يا « قطمير »
اوشك لب الرخ يطير
صوت الرخ انبح
ارفع رأسك عن ساعدك الايمن وانبح
كل كلاب العالم تنبح
هز نيامك
انسيت لسانك ؟

... ويلوح الرد على عينيه الباردتين:
يا اسفا ، حنجرتي سرقت
اكل الصدأ لساني .

...

« يا مرنوش » .. « يا مشلينا »
.. ايا كنت !
استيقظ انت ...
انسيت « بريكا » ؟
كل مساء عند مغيب الشمس
تنظر من شرفات القصر وتهمس :
عد يا فارس اهل الحب
أقبل ، حررني من احزاني

طال غيابك
ايان ايابك !

...

الزمن يمد جناحه
يحمل كلمات « الحرة »
ويدق بها اعتاب الكهف
ما من رد
مات الرد .
الكهف ظلام
القوم نيام .
فيهز الجدران ويصرخ :
يا اهل الكهف ،
لو خطرت في الحلم لكم مرة
فكرة يقظه
لانشقت جدران الصمت
وانقض النور على الظلمه
وانبعثت ايام الصحو .

القاهرة **طاهر المتبولي**

عظيما ، في المرتبة التي يختارها هو (اي التاريخ) له .

***

من هنا نقول .. ان عظمة تشرشل هي عظمة اعمال وبطولات ، في صعيد وطني وقومي ، لا عظمة خلق في صعيد انساني شامل . انها عظمة نابليون ، لا عظمة باستور . انها عظمة بسمارك لا عظمة غوته . انها عظمة بطرس الكبير ، لا عظمة تولستوي . انها عظمة من تعظمه اعماله في حياته ، لا عظمة من يعظمه الاثر الانساني الذي تأتيه اعماله . انها عظمة من يعمل بواقع التاريخ ، لا عظمة من ، بعمله ، يغير وجه التاريخ .

هذه العظمة ، عظمة نابليون ، وبسمارك ، وبطرس الكبير ، وتشرشل .. يسجلها التاريخ الى جيل ، او جيلين ، او عشرة اجيال .. ولكنه لا يسجلها خالدة ابد الدهر .

اننا نكتب هذا المقال ، لا حقدا على تشرشل ، ولا شماتة بموت عدو . ان التاريخ — حتى ما كتبه عالم تشرشل بالذات — يشهد بان العرب ، ما كانوا يوما من اهل الحقد ، وما شمتوا مرة بموت عدو ، فعندهم من كبر النفس ، وشجاعة القلب ، ما به يحاربون اعداءهم حتى الموت دون ان يخرجوا به من الاصالة النفسية والضميرية ، التي وجدت فيهم منذ كانوا . انما كتبناه كيلا يحسب « التشرشليون » اننا ضعاف الذاكرة فيسعوا الى تقميص تشرشل الذي غاب في تشرشل جديد .

جورج حنا